الطريق المرسوم

بقلم
صوفى عبد الله

كان صوت جهاز راديو بعيد ، عبر الشارع يطن فى اذنيها ، وهى تسمع سؤاله .. وتتلقى تحديق نظـــراته القوية ، كأنه يريد ان يصب عليها كل مالديه من تيار مغناطيسي ...

وقاومت اضطرابها وراح عقلها يصب اللعنات على اولئك المخترعين المغفلين الذين أضاعوا وقتهم فى ابتكار اجهزة بهلوانية تافهة ، ولم يفكروا فى اختراع نافع جدا ولازم جـــدا ، انه الاختراع الوحيد الذى تشعر بلزومه لها فى هذه الساعة بالذات ، وكل مســـكينة فى موقفها من بنـــات حواء . ولا بد ان هناك مائة مليون مسكينة مثلها فى مثل موقفهـــا هذا من نماذج لابنـــاء آدم الجبارين يشـــبهون هـــذا الماثل امامها يصب عليها كل نيران نظراته المضطرمة العارمة ، التى تثير فى اعماق كيانهـــا الضعيف اعتى البراكين ...

لماذا لم يشغل هؤلاء العباقرة انفسهم باختراع اهم الف مليون مرة من الراديو والتليفزيون ؟ اختراع « ترانزستور » بطارية صغيرة جدا يضيء نورا اخضر او احمر او اصفر كأنوار علامات المرور لتعرف المراة هل المرور ممكن ، او خطر او بين بين .. جهاز صغير كهذا يكشفه عما فى قلب آدم وعقله نحو المسكينة التى يصب عليها ســـحره الطاغى .. فتعرف هل هو صادق .. أم يغرر بها .

وتذكرت شـــيئا آخر ففزعت .. تذكرت ان هذا الجهاز الترانزستور لو اتيح لكل الناس ، فمـــاذا يكون موقفها حين يسلط زوجها هذا الجهـــاز على عقلها ...

كلا ! يجب ان يكون هـــذا الاختراع الثمين وقفا وحكرا عليها هى فقط ... آه يارب لو استطاعت فقط ان تعرف!!

وعاد عليها سؤاله ، وهو يصب فيها نيران نظراته فيسحق عقلها وارادتها سحقا وهى تتماسك :

ـــ لا ادرى لمـــاذا تصرين دائما على تعذيبى ؟ .

واخذت عيناها تتفحصه فى توجس فرغم صـــوته الحزين وملامح وجهـــه المتقلصة ، لم تســـتطع ان تكون فكرة واضحة عما يتكتمه فى دخيلة نفسه : هل هو صادق حقا ، أم يمارى ويلعب بها ؟ .. اترى حقا يحبها أم يريد ان يستشف طوايا نفسها ؟ ان نفســـها جياشة بالاحساسيس ... تحســـها

كالبركان على وشـــك الانفجار ... لا تدرى فى اى لحظة سيفلت منهـا زمامها .. ربما الآن ... فورا ... او بعد دقيقة .. او ربما تســـتطيع التحكم ويمر الموقف بسلام وتتغلب على ضعفها ... الله اعلم...اما اذا تغلب هو وصار سيد الموقف ... رباه ! .. ان نفسها تفلت منهـا فتعربد وترتكب من الافعال مالا تجسر ان تواجه به هذه النفس اذا عادت الى حالتهـــا الطبيعية !..

حالتها الطبيعية ؟!

اذن هى لا ترتكب هذه الاعمال وهى فى وعيها !.

احقا ان داخـــل النفس البشرية شخصيتان متعارضتان كامنتان ، هما : الخـــير والشر ؟ اتكون الشـــخصية الشريرة هىالتى تستحوذ عليها وتشل تفكيرها الطبيعى وتجعـــل بذور الشر الكامنة تتشعب كالاخطبوط تمتص كل ما حولها وتعيث فســـادا دون اى رادع من الشخصية الأخرى المستنيمة لها ؟!

ان سلطانه اقوى الآن ، فى هـــذه اللحظة بالذات من ان يدعها تفكر ، فقد احست بجيشان عواطفهـــا تمور وتملأ جسمها ثم يزحف الى لسانها اســـمه الحبيب فاذا به يقفز الى شفتيهـــا فتهمس به فى نشوة .. فيمد لها يده المرتجفةبعود ثقابليشعل لها سيجارة فتتلامس الأيدى وتتلاقى العيـــون فى نظرة صامته جياشة تزلزل جسمهـــا كله ...

منذ عام عرفته.كان صديقا لزوجها احضره ذات يوم الى البيت لتنـــاول طعام الغداء ، وقدمه اليها وهو متهلل بعودة صـــديق طفولته من الخـــارج . وكانت جلسة ممتعة تخللتهـــا ذكريات الطفولة العذبة واطوار الشباب وما مر بهما ، وقص عاطف على صديقه زوجها ما مر به فى حياته ، ومأســـاة حبه ، وهربه الى الخـــارج بقلبه الجريح ، وعزوفه عن المراة والزواج بعد ذلك . وحاول زوجهـــا ان يثنيه عن عزمه ، ضاربا بها وبحناتها وحبها واخلاصها اكبر مثـــل يدحض فكرته ، واذا كانت امراة قد خانت عهـــوده ، فليس معنى ذلك ان كل النساء سواء ...

واغضي عاطف ، لم يحـــر جوابا .. ولكن سحابة حزن رانت على الموقف ، فأسرع زوجهـــا يدير دفة الحديث الى ظروف العمل والطقس ودخلت ابنتهما فىهذه اللحظة منزهتها الصباحية مع دادتها ، وراحت تتقافز ، وساد الجو مرح جميل بدخول الطفلة اللطيفة ..

اما هى فلم يستطع جو الموقف ان ينتزع من نفسها احساسها بالرثاء لهذا الشاب الفارع الوسيم وراحت تختلس اليه النظر وهو يداعب طفلتها فىحنان واقبال شديدين ...

وتعددت زيارات عاطـــف للبيت ، واصبح يدخل ويخرج فى اى ســـاعة يريدها بعـــد ما اعطاه الزوج مطلق الحرية والثقة مساهمة منه فى ابعاد روح الكآبة عن صـــديقه العزيز ... واشعاره بجو العـــائلة الدافىء ليعيد اليه ثقته بأن هناك نساء فضليات ...

ولم تكن سهير بأقل رغبة من زوجها فى ادخال السرور على قلب عاطف . ولما كانت متزوجة منذ ست سنوات ، ولم تنجب سوى هذه الطفلة ، لان مانعا

الم بها بعد ولادتهـــا قرر الاطباء انه سيزول بمرور الزمن ، ولكن السنوات مرت ، وهى فى شوق ملحللأطفال ، مما جعل الفراغ يلون حياتها، ولم يفلح حب زوجها وحدبه فى ملء حياتها لان أعماله الكثيرة كانت تعوقه عن مرافقتهـــا الى امكنة اللهو والنزهات ، فانطوت على نفسها تجتر آلامها فى صـــمت حتى لا تزعج زوجها وتسبب له خيبة أمل فى العش الهنىء الـــذى بناه وزوده بكل مريح وجديد ليســـعدها ويدخل على قلبها السرور ...

وبمرور الأيام احست سهير ان وجود عاطف معها قد فجر فيها ينابيع شبابها بعد ركود .. وفى كل مرة يجلس اليها تكتشف فيه اشياء افتقدتها فى زوجها وارتاحت اليه واصبحت تحس بوحشة لغيابه ، وشعر هو ببوادر استلطافها له فراح يتقرب منها ويرمى شـــباكه حولها !..

وذات يوم ، وقـــد انفردا فى البيت انتظارا لعودة زوجهـــا من عمـــله ، كان هذا الموقف الذى قلب حياتها رأسا على عقب ، فقـــد راح يلقى فى اذنيها كلمات الحب والهيام ، وما ان احست ان الموقف سيفلت من يدها وقد تملكتهـــا نشوة كادت ان تدفع بها بين احضانه ونسيت كل شيء الا صوت نداء يصرخ فى اعماقها ... فى هـــذه اللحظة بالذات سمع صوت اقدام زوجها فوق الدرج ، فعادت اليها حواسها المستنيمة، وفى لمح البصر تغلبت على عواطفهـــا واخذت سمتها الطبيعى ...

* * *

لماذا تطورت العلاقة بينهما بعد ذلك؟

اليوم ؟ لا تدرى ولا تدرى أيضـــا اذا اتيحت لها مثل هذه الفرصة هل كانت تستعيد الذى فعلت أو تحجم عنه انها تستسلم للحظتها ولا تفكـــر فيما يكون بعد ذلك وهذا — للأسف — عيبها الذى تشلت فى التغلب عليه مهما قاومت!. وكان زوجها يعلم فيها هذا الضـــعف لذا حرص ان يجنبها الوقوع فيه دون ان يفتئت على حريتها حتى لايقوى فيها هذه الرغبة وهو يعلم ان كـــل ممنوع مرغوب ...

ولم يفت عليه الاستلطاف الذى بينها وبين صديقه . وخوفا من ان تحـــدث كارثة احس ببوادرها فى عينى زوجته. ولم يكن يخفى عليه ما تدبره — مهما فعلت — اذا به يترك كبرياءه جانبا ؛ ويعاتبها عتابا قاسيا لحـــركات بدرت منها ومن عاطف — لم تخف عن عينيه — يطلب منها فى حزم ولكن فى رفق ، ان تتحكم فى عواطفهـــا ، ولا تندفع وراء نزواتها ، وسيقطع هو علاقته نهـــائيا بهـــذا الذى كان يعتبره يوما أعـــز اصدقائه ..

وشـــعرت بكلمات زوجها كطعنة نصل فى احشائها ، خصوصا وهى تقسم له انه لايوجد بينها وبينه أى شيء تلام عليه ! كانت تعلم انها تكذب وان ثمـــرة خطيئتها تتلوى فى احشائها تنهشـــها متلذذة بامتصاص دمائها ، وان الامـــر قد خرج نهائيا من يدها ، ولم يبق غير ايام لتفاجـــأ بجريمتهـــا ماثلة امام عينيها ! ..

نعم انها قطعت كل صلة لها به بعد هذا الحادث ولكن شعور موجع كئيب لازمها لعظم الذنب الذى ارتكبته فى حق نفسها وزوجهـــا وودت لو تطعن

الجنين وترديه ميتا قبل ان يخرج الى الوجود ، وتدفن معه عارها وسرها الذى سيصبح بعد ولادته علما على رءوس الاشهاد ! ..

شيئا واحدا كان يريح افكارها المكتئبه ويومض شعاعا من الامل فى نفسها لايجعلها تتأرجح بين الشك واليقين :

لماذا لا يكون المواود ابن زوجها ؟.. الا يمكن ان يكون حملها جاء نتيجة حالتها النفسية وهى تحس أنها محبوبة مشتهاة من رجلين فى آن واحد ؟ ..

لكن القدر كان يدخر لها فى جعبته عقابا ظنت انها تستطيع الافلات منه ، واذا المولود صورة طبق الاصل من عاطف ...

رباه ! اى مصيبة حلت بها ، اى كارثة ستحطم حياتها ! اى عار سيلحق بأيامها ... لقد فقدت كل شيء .. فقدت نفسها اولا ، وستفقد زوجها وبيتهاوالحياة الناعمة والابنة الجميلة.. لقد تجسمت لها شناعة الموقف بعدما انجلت الغاشية واحست انها تسقط من شاهق الى الحضيض حيث الخزى والعار والشنار ...

وكرهت الطفل ، كرهته من كل قلبها ! .. كانت ترتعد فى جزع كلما قدموه اليها لترضعه ، فتحسه ثعبانا ينهش ثديها . ! وتود لو تصرخ من اعماقها ان يبعدوه عنها . والناس اليها مهنئين بعد ما انقطع الامل فى انجابها مرة ثانية ! ..

انها تحاول ان تتماسك وتقبل عليه كيلا يفتضح امرها ، رغم ان الأمومة ناضت من قلبها وكأنما لا تربطها بهذا الوليد أى عاطفة ، ففيه يتجسم عارها، وبوجوده يظل كالسيف المسلط على عنقها ...

كانت ترتعد وتتيبس اطرافها كلما رات زوجها يلاطفه ويقبله ويتفحصه بعينيه . فهو اول من يدرك الشبه الذى بينه وبين عاطف ، بعد الشك الذى اصابه من علاقتهما ..

ترى هل يفاجئها يوما بهذا الاتهام ؟. لا تظن ... فزوجها عاقل حليم ، ولكنها لم تجربه فى مثل هذا الموقف .... ونما الطفل ، جميلا ذكيا لطيفا .. يتدفق صحة ، ومع نموه كان ينمو هلعها ومع كل حركة والتفاتة منه كان رعبها يتضخم .. فنظرات عينيه وتكوين جسمه، صورة لاتخطئها العين لشريكها فى الجريمة ...

الم يلحظ ذلك زوجها ؟! ربما نعم ، وربما أيضا لا ، فلم تظهر عايه اى بادرة تنم عن شكله ... ولم يفاتحها فى أمر عاطف منذ ذلك اليوم يوم العتاب ...

كان صوت ضميرها يؤرقها .... ! كان لايتركها لحظة هادئة هذا الضمير . كان عذابه أشد من عذاب الجحيم اذا كان هناك حقا جحيم ....

وكلما حاولت ان تختلق لنفسها عذرا ، كلما حاولت ان تنفى بنوة الطفل للآخر ... تجد دليلا يؤكد عدم انتمائه للزوج . فينهار كل أمل للصلح مع نفسها ...

وساءت صحتها، وانتابتها الهواجس، وصارت تلازمها فى ليلها واثناء النهار ،

وقررت فى النهاية ان تهمل الطفل حتى تسوء صحته ويموت ...

لكنها لم تستطع . كان قلبها ينزف وهى تراه يمد لها يدا صغيرة بضة متلهفة الى صدرها .. فتقبل عليه تلقمه ثديها ودموعها تنهار غزيرة فوق الوجه الملائكى ، وتذوب كراهتها له ويحل محلها اشفاق مرير لوضعه منها ...

وثارت كوامن الاثرة فى نفسها بعد عذاب اوشك ان يصل بها الى الجنون . وراحت تجادل نفسها :

كيف يمكن ان تستسلم لهذه الافكار المميتة ؟ . كيف ترضي بهذا العذاب الذى يضنيها ويحيل حياتها الى شقاء ؟ . اهى المراة الوحيدة فى ساعة ضعف؟! كم من امراة ارتكبت أضعاف اضعاف مافعلته ويعشن هادئات ناعمات يتمتعن بحب ازواجهن وثقتهم ! . لماذا تترك نفسها عرضة للانهيار وقد انقطعت عن هذا الرجل منذ اليوم الذىحلفت لزوجها الا تراه ، وعاشت عيشة الفضيلة والاخلاص لزوجها ؟ .. لماذا لماذا !؟

ويجيبها صوت من اعماقها مزمجرا هازئا :

اذا سقطت المراة مرة واحدة فى حياتها لا يمكنها ان تعيش عيشة الفضيلة بعد ذلك ابدا .. لا تخدعى نفسك ...

هراء . لقد سقطت وتابت ، واصبحت منذ ذلك اليوم امراة اخرى ، حتى انها تنظر الى ما بدر منها وتعجب كان انسانة ثانيةغيرها هى التى فعلته لاتمت لها بصلة ....

وفجاة مرض الطفل ، أصيب بالتهاب رئوى حاد ، وكتب له الطبيب عديدا من الادوية ، بعضها كل ثلاث ساعات ، والبعض الآخر كل ست ساعات ، وشدد فى المحافظة على المواعيد ، نهارا وليلا ، فالخطر كامن فى التهاون او الاهمال .

وبدات فى تنفيذ التعليمات بدقة .. ونسيت احقادها كلها ، ومر النهار وهى على حال من القلق والتوجس والانفعال، وهى تستمع لحشرجة انفاس الطفل تتردد فى انحاء الحجرة بينما انينه يأتيها خافتا ، وقد التهبت وجنتاه بحمرة قانية، واسبل جفنيه فى استسلام ضعيف ...

وزحفت جيوش الظلام تطبق على الحجرة الصغيرة ، والطفل المستسلم والأم الساهرة بجانبه ، وانتشر السكون فى البيت كله : فالأب يرقد فى الحجرة المجاورة مع ابنته ، والخادم فى المطبخ ...

ومر الوقت ثقيلا بطيئا ، وهى جالسة بجوار الفراش ويدها على خدها ، وعيناها على وجه الطفل فى شرود ساهم .

وسبحت افكارها بعيدا ، وغامت عيناها فى تيه من الخيالات والاحداث ، واختلطت عليها المرئيات ، واذا بالطفل يتمثل لها رجلا ، واذا ماحدث بينها وبين هذا الرجل يتراءى امامها فى صورة واضحة ليس فيها لبس ..

وتتململ فى جلستها ، والحوادث

تتراءى لها كشريط سينمائى ، وتنتفض بذور الشر الكامنة فى اعماقها وتصيح بها :

اتركى الطفل دون دواء . سيموت ميتة طبيعية . لن يلحق بك اى شك . . . انها فرصتك الوحيدة . . .

وتصاب برعشة حادة ، وتفتح عينيها مذعورة لتصطدم بتباشير الفجر تأخذ طريقها الى الحجرة الصغيرة الساكنة من خلف زجاج النافذة . . وطار عصفور واصطدم بالزجاج المغلق ثم ولى هاربا فى ذعر . وقامت كالمسوعة تنظر فى ساعتها ثم الى وليدها ، وشهقت شهقة مروعة .

كان جثة هامدة . . . .

مات الصغير قبل ان تسعفه بالدواء ! . .

وانكفأت على الجثة الصغيرة تبكى بحرقة . . . وسياط نار تلسع قلبها ، وانتابها اغماء حينما خلصوه من بين يديها عنوة ليذهبوا به الى مقره الاخير . . .

وحينما افاقت احست كان شيئا من البرودة او الهدوء العلوى يسرى فى اجزاء جسمها جميعا ، ولم تستطع الى البكاء سبيلا ، كأنما انسكبت آلامها كلها وازيح عبء ثقيل عن كاهلها ، وشعرت بخفة وانطلاق . . !

* * *

وحار الناس فى امرها ، لما يرونه فيها من رزانة وعقل وعزوف عن البكاء لا يتفق مع تحرقها السنين الطوال الى طفل ومن يدرى ربما لا تنجب سواه ، وكانوا يهزون رءوسهم متعجبين لقدرتها على ضبط اعصابها !

ولا تعدم متحذلقا من المفرمين باستنباط الحكم من الاحداث الجارية ، يهز رأسه هزة العليم وهو يقول :

ــ حقا ليست العبرة بالصلاة والصوم ، فهذه المراة لا تصلى ولا تصوم ، ولكن لاشك ان جذوة الايمان التى فى سريرتها حية متوقدة ، والا لما استطاعت ان تجد بهذه السرعة العزاء والسلوان . . .

وتهز هى رأسها وصوت جهاز راديو بعيد يطن فى اذنها عبر الشارع . . .

ويمضي كل شيء فى طريقه المرسوم